وضع علم النحو

إن الذي يعتقده علماء العرب هو أن الإمام أبو الأسود الدؤلي هو واضع العلم ؛ وللناس المحدثين من مشارقة ومستشرقين آراء كثيرة في هذا ، فلا نريد أن نقول شيئًا قبل أن نستقصي النصوص القديمة والحديثة في هذه المشكلة فلعلها تهدينا سواء الصراط .

فأما ابن قتيبة الدينوري ٢١٣ — ٢٧٦ هـ فإنه لم يذكر أبا الأسود ولا تلامذته حين عدَّ في كتابه « المعارف » رجال النحو وطبقاته وإنما بدأ بعبد الله بن أبي اسحق الحضرمي وأبي عمرو بن العلاء .

وأما ابن النديم — ٣٧٥ فيقول في الفهرست إنه شاهد بأم عينه في مكتبة لرجل معاصر قمطراً فيه نحو ٣٠٠ رطل من فلجان وصكاك وقرطاس مصري وورق صيني وورق تهامي وجلود وأدم وورق خراساني وفيها خطوط بعض الصحابة وفيها أربع أوراق قال أحسبها من ورق الصين ترجمتها هذه : فيها كلام في الفاعل والمفعول من أبي الأسود رضي الله عنه بخط يحي بن يعمر وتحت هذا الخط بخط عتيق هذا خط علان النحوي وتحته بخط هذا خط النضر بن شميل ثم لما مات الرجل فقدنا القمطر (١) .

ويقول الزبيدي الإمام أبو بكر محمد بن الحسن الإشبيلي — ٣٧٩ هـ (٢) : « وأول من أصل علم النحو أبو الأسود وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج وعنبسة الفيل ونصر بن عاصم وميمون الأقرن ، وكان لأبي الأسود فضل السبق والتقدم » .

وقال أبو سعيد عبد الكريم بن السمعاني في كتاب الأنساب الكبير (ويقال : هو اول من تكلم بالنحو وروى عنه الناس) .

---

(١) الفهرست ص ٤٠ (٢) في كتابه « طبقات النحاة واللغويين » وهو مخطوط بالمكتبة المصرية ومكتبة الجامعة المصرية ، وسنصفه حين كلامنا على تراجم النحاة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ويقول ابن الانباري — ٥٧٧ في نزهة الألباب : (روي عن ابي الأسود انه دخل على علي فوجد عنده اوراقاً كان فيها بعض مسائل النحو فقال : انحُ نحو هذا) .

ويقول ياقوت ٥٤٧ — ٦٢٦ في معجم الادباء « والاكثر على انه اول من وضع العربية ونقط المصاحف ... روى عاصم قال جاء ابو الاسود الدؤلي الى زياد ابن ابيه وكان يعلم اولاده وقال « اني ارى العرب قد خالطت الاعاجم وفسدت السنتها افتأذن لي ان اضع للعرب ما يعرفون به كلامهم » فقال زياد « لا تفعل » قال فجاء رجل الى زياد فقال « اصلح الله الامير مات ابانا وترك بنون »مات ابانا وترك بنون!! ادعوا ابا الاسود فلما جاء قال له «ضع للناس ما كنت نهيتك عنه»ففعل وروي في وضع العربية غير ذلك .

وقال الحافظ الذهبي الدمشقي ٦٧٣ — ٧٤٨ في طبقات القراء « انه (يعني ابا الاسود) اول من وضع مسائل في النحو باشارة علي عليه السلام فلما عرضها على علي قال ما احسن هذا النحو الذي نحوت» فمن ثمَّ سمي النحو نحواً .

وقال ابن حجر العسقلاني ٧٧٣ — ٨٥٢ في الاصابة : وقال ابو علي القالي حدثنا ابو اسحق الزجاج حدثنا ابو العباس المبرد قال اول من وضع العربية ونقط المصاحف ابو الاسود وقد سئل ابو الاسود عمن نهج له الطريق فقال تلقيته من علي بن ابي طالب . وقيل كان الذي حداه على ذلك ان ابنته قالت له « يا ابت ما اشدُّ الحر » وكانت في شدة الحر« فقال مانحن فيه » فقالت « انما اردت انه شديد» فقال « قولي ما اشدَّ الحر» فعمل باب التعجب . وروى عمر بن شبة بإسناد له عن عاصم بن بهدلة قال : اول من وضع النحو ابو الأسود استأذن زياداً وقال له : إن العرب خالطت العجم ففسدت ألسنتها فلم يأذن له حتى جاء رجل فقال : أصلح الله الأمير مات ابانا وترك بنون ، فقال الأمير : مات ابانا وترك بنون !! ادع ابا الأسود فأذن له حينئذ . وروى ابن سعد ان سبب ذلك انه مرَّ به فارسي فلحن فوضع باب الفاعل والمفعول فلما جاء عيسى ابن عمر الثقفي تتبع الأبواب فهو اول من بلغ الغاية فيه . وقال ابن حجر ايضاً في تهذيب التهذيب . « وقال العجلي هو (اي ابو الاسود) كوفي تابعي وهو اول من تكلم في النحو» .

ويقول الاستاذ زيدان « أما واضع العربية او مدونه فهو بالاجماع ابو الاسود

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الدؤلي .... واختلفت الروايات في ما بعث ابا الاسود على وضع النحو لكنهم مجمعون على انه واضعه كما قدمنا وهو يقول انه تلقى ذلك عن علي بن ابي طالب ... ويؤكد ذلك ما ذكره ابن النديم في الفهرست » ثم يسوق القصة القمطرية (١)

ويقول الأستاذ الرافعي (أول ما كتب في الأدب صحيفة أبي الأسود الدؤلي المتوفى سنة ٦٩ (وقيل إنه توفي في خلافة عمر بن عبد العزيز من سنة ٩٩ الى سنة ١٠١ عن ٨٥ سنة) . وهي المعروفة عند النحاة بتعليقة أبي الاسود وفيها اختلاف بينهم نذكره في محله (٢) . أقول : وقد علق الأستاذ هذا بقوله في أسفل الصحيفة نفسها (لم يكتب أبو الأسود إلا هذه الصحيفة وكان أصحابه يكتبون عنه) ثم يذكر قصة القمطر عن ابن النديم ويقول (أول كتاب وضع في النحو على التحقيق هو الكتاب الذي وضعه نصر بن عاصم الليثي النحوي من أصحاب أبي الأسود وتوفي سنة ٩٩ ذكره ياقوت) ويقول الأستاذ الرافعي أيضاً (أول إسناد عرف بالأدب كان علمياً بحتاً ذلك إسناد نصر بن عاصم إلى أبي الأسود الدؤلي في كتابه الذي وضعه في العربية (٣)

ويقول الاستاذ الزيات (أجمع المؤرخون أن أبا الأسود الدؤلي المتوفى سنة ٩٩ هو واضع النحو ، وأن السبب الذي حداه إلى وضعه هو نشوء اللحن وهجوم العجمة) ثم ذكر قصة ابي الأسود مع زياد .. ثم قال : « فوضع ابو الأسود باب التعجب ثم باب الفاعل والمفعول ، وأخذ كلما سمع لحنة وضع القاعدة التي تصلحها .. والغالب في ظننا أن ابا الأسود لم يضع النحو والنقط من ذات نفسه وإنشائه ، وإنما نظن أنه أمّ بالسريانية وقد وضع نحوها قبل العربية او اتصل بقساوستها (٤)

ويقول الأستاذ « فلوجل » صاحب فهرست القرآن « ان الواضع للنحو هو ابو الأسود » ولا يزيد الاستاذ على أن يذكر بعض أقوال المتقدمين دون أن يذكر رأيه .

أما دائرة المعارف الإسلامية ، فيقول فيها الاستاذ لشتنشتر Lichtenstadter

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٢٢٥ (٢) تاريخ الادب العربي ج ١ ٢٨٧٦٢٨٧ (٣) الرافعي ج ١ ص ٢٨٢ (٤) تاريخ الادب العربي ص ٢٠٠ من الطبعة السادسة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في مادة (نحو) ما ترجمته « إن المادة الأولية لعلم النحو العربي ، جاءت من المنطق الارسطوطاليسي الذي انتهى إلى العرب عن طريق السريان . وإن مسألة وضع العربية ووضع كلمة (نحو) نفسها مسألة محوطة بكثير من الغموض . ثم يذكر قصة ابي الأسود وعلي وقصته وزياد ، ويرجح الأستاذ أن قصة ابي الأسود وزياد أقرب الى الصحة من قصته مع علي عليه السلام ، ولكنه لا يذكر سبب الترجيح ثم يقول : « فلما تم عزم ابي الاسود على وضع العربية أحضر خطاطاً وقال له : إن رأيتني أفتح فمي بسعة فضع نقطة على الحرف ... وهكذا نسب إلى أبي الأسود وضع النقط ونحن نؤمن بأن أبا الاسود له ضلع في المسألة لكثرة الروايات وتضافرها ، ولكنه لم يصلنا من آثاره شيء . وأبو الاسود يعد رأس المدرسة البصرية) .

بعد أن ذكرنا طائفة كثيرة من أقوال العلماء من محدثين وقدماء ، نعقب على ذلك بقول استاذنا الجليل ابرهيم مصطفى استاذ العربية وتاريخها في الجامعة المصرية ونعتقد أن رأيه حفظه الله رأي ناضج لم يقله إلا بعد بحث وتمحيص دقيق ، وإليك ما يقول :

يقول الأستاذ : ان الذي نفهم من هذا الاضطراب في أقوال العلماء من أمر علي لابي الأسود (بعلم النحو) وبعضهم يقول : « وضع العربية ونقط المصاحف . ثم أننا نرى أن ابن قتيبة لا يذكر أبا الاسود ولا تلاميذه حين سرد من لهم ضلع في وضع النحو وإنما بدأ بعبد الله بن أبي إسحق ، وهذه مسألة جد مهمة لابد أن يكون وراءها شيء

فالذي نراه أن أبا الاسود لم يضع قاعدة من قواعد النحو ولا اصّل أصلا من قواعده ، وإنما وضع النقط الذي يضبط به أواخر الكلمات بحسب ما تقتضيه السليقة العربية . ودليلنا على هذا أن أقدم كتاب نحوي بين يدينا هو (كتاب سيبويه) وهو حريص كل الحرص على أن يسند كل رأي فيه إلى صاحبه ، فهو كثير النقل جداً عن الخليل ، بل إن أكثر الكتاب منقول عنه ، وهو ينقل عن أبي عمرو بن العلاء وعن يونس بن حبيب وعن عبد الله بن أبي إسحق ولكنه لا يتجاوز عبد الله صاعداً فماذا يمكن استنتاجه من هذا سوى أن أبا الاسود لم يضع قاعدة ولا أصلا ، وإنما أول

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من وضع القواعد والأصول هو ابن أبي إسحق ، وان ابا الاسود نقط المصحف نقط الشكل بأن وضع على الكلمة نقطة فوقها دلالة على الفتح ، ونقطة تحتها دلالة على الكسر ونقطة بين يديها دلالة على الضم . وبهذا صرحت بعض الروايات التي نقلناها . وفي المكتبة المصرية بعض المصاحف التي نقطت على طريقة ابي الأسود كما أن لدينا في مكتبة آل طلس قطعة من مصحف صغير كتب بالكوفي ونقط بنقط ابي الاسود ، ويظهر أنه كتب في المئة الثانية أو الثالثة .

إن النصوص النحوية التي بين يدينا تعرّفنا أنه لم يكن قبل عبد الله بن أبي إسحق شيء من البحث النحوي ، وإن الذين كانوا قبل ابن إسحق كانوا قرّاء يروون القرآن وقراءاته ليس غير . إذن فمسألة الصحيفة التي يزعم ابن النديم رحمه الله وبوافقه عليها الأستاذ الرافعي مسألة ليست صحيحة لما بيّنا ، ولأنه من البعيد جداً أن يضع أبو الأسود في ذلك العهد البعيد ألفاظ (فاعل ومفعول وتعجب الخ ..)

ونحن إذا تتبعنا كتب التراجم نجدهم يذكرون عن ابن أبي إسحق جملة هي « إنه أول من علل النحو ومدّ القياس » وهذا ليس معناه إلا أنه أخذ يعلل ما يجد في كلام العرب من ضمّ ونصب وكسر وإنه أخذ يردّ ذلك الى أقيسة وعلل ، ثم إنه مدّد ذلك حتى كان هذا العلم . ثم لما جاء بعده تلميذه عيسى بن عمر صنف كتابين جليلين في النحو ، قيل فيهما :

ذهب النحو جميعاً كله غير ما أحدث عيسى بن عمر
ذاك « إكمال » وهذا « جامع » وهما للناس شمس وقمر

إذن فالذي وضعه أبو الأسود ليس إلا نقط الشكل والضبط ولا حاجة إذن لما يقوله الأستاذ الزيات من أنه اقتبس ذلك عن السريان أو الكلدان كما يقول الأستاذ زيدان أيضاً لأن هذا الذي وضعه أبو الأسود أمر تدعو اليه الطبيعة العربية ويحسن بنا أن نشير هنا الى غلطة ذكرها الأستاذ زيدان حين يقول : « والحقيقة انه وضع نقطاً لتمييز الاسم من الفعل ومن الحرف وليس لتمييز الباء من التاء » . فقد علمنا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أن عمل أبي الأسود ليس إلا لتمييز المرفوع من المنصوب لا لتمييز الباء من التاء كما يقول .

بعد أن عرفنا شيئاً في مسألة وضع النحو سندرس في الأعداد المقبلة ان يسر الله (مصادر النحو) و (مذهب البصرة) و (مذهب البغداديين) و (مذهب العلماء المتأخرين) ؛ ثم ندرس (كتب النحو) ، فنسأل الله التوفيق والإعانة .

محمد أسعد طلس
مجاز في الأدب العربي
دمشق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net